(Abstract)

Abstract

The Sufi Literature and its role in the reform of society in Indo-Pak Sub-continent

By: **Dr. Sanaullah Al - Azhari** *

The base of Sufi literature is Holy Quran and Hadith and pure hearts and bright minds of companions of Muhammad Peace be upon him and his other sincere and honest followers those who are called Sufis.

With regard to the role of Sufi literature in the reform of society in the Indo-Pak-Sub-Continent we can say that it has a prominent role and popular introduction and a great importance because of its significant services in the field of reform in terms of culture, society, economics, and politics. We know well that Sufis were great researchers encyclopedias. Thier residences and tombs (khanqahen) were centers of charity. All members of society whether rich or poor getting benefit from their peaceful teachings. They are spreading the message of love, peace and help of others everywhere in the world till today.

The Sufism in writings of authors of Indo-pak-Sub-Continent is heritage of the whole Islamic history in this region and portrays fuliy our contemporary Islamic identity and reflects the goals and tendencies of Muslims. It highlights the concept of our religion and translates our dreams, hopes and goals for a better future. It also shows the leading role of Islamic concept in past and present. It expresses our deep love and faith in God and spiritual life. It inspires whole mankind to love and respect His Messenger of truth, Muhammad Peace be upon him.

These points have been discussed in this article in the light of poetry and prose of five great and well known Arabic writers of Indo-Pak Sub-Continent and they are following:

First: Sheikh Shah Wali Allah Al-Dehlawi . Second: Sheikh Abul-Hassan Ali Al-Nadawi. Third: Sheikh faizul Hssan Al-Saharanpuri .Forth: Sheik Fazlul Haquc Al-Khair Abadi .Fifth: Sheikh Ahmad Riza Khan Al-brelwi.

* Assistant Professor Faculty of Arabic International Islamic University Islamabad.

الأدب الصوفي و دوره في إصلاح المجتمع في شبه القارة الهندية الباكستانية

دكتور ثناءالله الأزهري[1]

تمهيد:

إن الأدب الصوفي أدب مصدره القرآن و الحديث النبوي الشريف و القلوب النقية والعقول المنورة بنور العلم و التقوى , سواء كان هذا العلم و التقوى عند الصحابة أو التابعين , أو الأولياء و الصالحين المقربين عند الله عزوجل , يؤكد على ذلك الشيخ عبد الحي الحسني بقوله في علم التصوف الإسلامي:

"هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة و كبارها من الصحابة والتابعين من بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة و الانقطاع إلى الله تعالى و الإعراض عن زخرف الدنيا و زينتها و الزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة و مال و جاه و الانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة و كان ذلك عاما في الصحابة و السلف فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده , وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية و المتصوفة"[2]

و مادام هذا الأدب يخص بالقلوب المعلّقة بذكر الله , والعقول الواعية بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فمن أهم الشروط للإقبال عليه أن يكون الإنسان في استعداد تام أن يفهم حديث الروح إلى جانب حديث العقل العادي, لأن الإسلام يخاطب العقل و القلب على حد سواء, و دعوته تكتمل بوجود موهبتين معاً في داعية الإسلام ومبلّغه, و الضعف فيهما يسبب الخلل و عدم التوازن في نشر الدعوة الإسلامية فعليه أن يهتم بتقويم و تعزيز هذا الجانب المفقود أو الضعيف حتى يرفع الخلل ويزيل النقص, و يكون الداعي أقرب إلى الصواب من مفاهيم الدعوة الإسلامية الصحيحة.

أما ما يتعلق بدور الأدب الصوفي في إصلاح المجتمع في شبه القارة الهندية يمكن القول بأن له دورا بارزا و صيتا واسعا و مكانة عظيمة و أهمية كبيرة لما له من خدمات جبارة في مجال الإصلاح من ناحية الثقافة و الاجتماع و الاقتصاد و السياسة, لأننا نعلم تماما أن الصوفية المتقدمين المحققين كانوا شخصيات علمية و أصحاب خير كثير للجميع, و كل طائفة من طوائف المجتمع الراقية والمتوسطة و الفقيرة كانت تستفيد منهم حسب ضرورتها.

يقول الشيخ أبو الحسن علي الندوي في هذا الصدد:

"فلا شك أنه لولا هؤلاء – أصحاب النفوس المزكّاه الذين وصلوا إلى درجة الإحسان, و فقه الباطن, لانهار المجتمع الإسلامي إيمانا و روحانية, وابتلعت موجة (المادية) الطاغية العاتية البقية الباقية من إيمان الأمة وتماسكها, وضعفت صلة القلوب بالله والحياة بالروح والمجتمع بالأخلاق, وفقد الإخلاص و الاحتساب, وانتشرت الأمراض الباطنية واعتلت القلوب, وتكالب الناس على حطام الدنيا, وتنافس أهل العلم في الجاه والمال والمناصب وغلب عليه الطمع والطموح وتعطلت شعبة من شعب النبوّة و نيابتها وهي: (تزكية النفوس والدعوة إلى الإحسان وفقه الباطن)"[3]

إن هذا القول ملخص ما قيل و ما يقال في دور الأدب الصوفي في إصلاح المجتمع الإسلامي بصفة عامة والمجتمع الهندي الباكستاني بصفة خاصة من النواحي التالية:

أولا يرى الباحث أن هذا الكلام جامع في إبراز أهمية هذا الجانب الروحي للإسلام وما له من دور كبير و هام حيث جعله شعبة من شعب النبوة ونيابتها.

ثانيا إن هذا القول اختاره الباحث من كتاب "ربانية لا رهبانية" مما يشير إلى هذه الحقيقة أن الصوفية المحققين أدّوا دورا مثاليا في نهضة الأمة الإسلامية في جميع العصور, و لم يكونوا منعزلين من همومها وآلامها و لم يختاروا الرهبانية بل اختاروا الربانية, ومن يكون على طريق رباني فهو يعرف ما يجري في المجتمع وإن كان يجلس في زاوية صغيرة بعيدة من بيوت الناس, و يحاول إصلاح المجتمع بطريقة ربانية بإصلاح النفوس, و تهذيب القلوب, و وصل العلاقة المنقطعة

بين العبد وربّه امتثالا لقول النبي صلى الله عليه وسلم "إن في الجسد لمضغة إذا صلحت صلح الجسد كله و إذا فسدت فسد الجسد كله ألاء وهي القلب"[4]

و نتناول هذا الموضوع في مبحثين أما المبحث الأول هو في تعريف الأدب الصوفي و مكانته و المبحث الثاني يضمّ نبذة تاريخية ونماذجه في شبه القارة.

المبحث الأول:

تعريف الأدب الصوفي:

يذكر الباحث في هذه السطور تعريف الأدب الصوفي من خلال آراء بعض الكتاب المتخصصين والباحثين الذين لهم قدم راسخ في هذا المجال يقول أستاذنا الدكتور عبدالمنعم خفاجي:!

" أدب التصوف أدب إلهي سام وهو مدد ألهمه الله للمتصوفين فانتهلوه بكل ظاهره وباطنه ، والصوفية تولاهم الله برعايته فأدبهم وهذب ظاهرهم وأصلح باطنهم، حتى ظهر كل واحد منهم صوفياً أديباً. تكاملت أخلاقه بتكامل أدبه لأن الآداب منبهة للسجايا الصالحة والمنح الإلهية . ولما هيأ الله I بواطن الصوفية لمناجاته وكلها بالسجايا الظاهرة توصلوا بحسن الممارسة الرياضة النفسية إلى استخراج ما في النفوس من الشوائب وتهيئتها إلى معرفة الحضرة القدسية . فصاروا مؤدبين مهذبين كاملين لله وبالله وفي الله على أن النفس قبل الرياضة المشار إليها عند ابن عطاء الله " هي مجبولة على سوء الأدب والعبد مأمور بملازمة الأدب "[5].

يفهم من هذا أن الأدب الصوفي في الحقيقة هو أدب رباني يدور حول القرب الإلهي و تزكية القلب , وتهذيب النفس وطاعة الله Y ورسوله صلى الله عليه وسلم.

مكانة الأدب الصوفي من الأدب العربي وتياراته المعاصرة .

يدلي أستاذنا الدكتور عبد المنعم خفاجي برأيه عن خدمة الطابع الصوفي للأدب الإسلامي قائلا :

"وهذا الطابع يتمثل التراث الإسلامى كله ويصور وجودنا الإسلامى المعاصر تصويرا كاملا ويعبر عن الأهداف والنزعات الانسانية التي هي مفهوم ديننا وكتابنا الحكيم. ويترجم عن أحلامنا وآمالنا وأهدافنا في مستقبل أفضل. ويستلهم البطولات الإسلامية القديمة والحاضرة. ويستوحى حضارة شعوب الإسلام ويستهديها ويعبر عن إيماننا بحياة روحية سامية وعن حبنا العميق للذات الإلهية إلى غير ذلك من مقومات الطابع الإسلامى في الأدب"[6].

هذه إشارة إلى أن الأدب الصوفى صورة كاملة للحياة الإسلامية فى الماضى والحاضر ويوضح أستاذنا الدكتور خفاجى رأيه قائلا :

"فإذا ما أردنا أن ننشئ أدبا إسلاميًا جديدا فإنه يتعين علينا أن نبدأ من حيث بدأ الصوفيون أدبهم . وأن تعود إلى القرآن الكريم. لنتفهم أصول دعوته . ولتمتلئ نفوسنا بجليل روحانيته. ولنتعمق في فهمه ودراسته. ولنستلهم من عبره وعظاته القدرة على مجابهة الحياة و معاناة مشكلاتها. و عندئذ نستطيع أن نفخر بأننا نعمل من جديد لتحقيق طابع إسلامى في أدبنا المعاصر"[7].

هذا يوضح لنا أن الأدب الصوفى هو جوهر الأدب الإسلامى وروح القرآن الكريم ولإعادة الأدب الإسلامى الصحيح و تجديده لا بد من أننا نسترجع إلى الأدب الصوفى الذى قدّم لنا الصوفية المحققون يقول الأستاذ أحمد أمين متحدثًا عن الأدب الصوفى:

"أدب غني في شعره . غني في فلسفته. شعره من أغنى ضروب الشعر وأرقاها. وهو سلس واضح و إن غمض أحيانا. و فلسفته من أعمق أنواع الفلسفة الإلهية و أدقها. و معانيه في نهاية السمو. تقرؤها فتحسب أنك تقرأ معانى رقيقة عارية لا ثوب لها من الألفاظ. خياله رائع يسبح بك في عالم كله جمال وعواطف صادقة يعرضها عليك كأنها كتاب إلهى تقلبه أنامل الملائكة. يقدس الشعراء فيه الحب[8].

إن الأدب الصوفى فى رأى الأستاذ أحمد أمين هو الذى يقدم صورة حقيقية لأحوال القلوب التى صلحت والأرواح التى زكت, والنفوس التى هذبت برياضة دينية ويقول الدكتور زكى مبارك :

''إى والله كان للصوفية أدب هو أعلى وأشرف من أدب البحترى والمتنبى ولكن طافت بالناس طائفة من الجهل فتوهموا أن لا صلة بين الأدب والدين وراحوا يقفون فيما يتخيرون عند الكتاب والشعراء الذين ألفوا الروح المدنية واتخذوا غذاءهم من الكؤوس المترعة والوجوه الصباح ".

يتضح لنا من هذا الرأى أن الأدب الصوفى فى الحقيقة أدب دينى إسلامى وروحى بكل معنى الكلمة و يندد الدكتور زكى مبارك بالدارسين ويقول :

''إن كل همهم أن ينقلوا ما قال الفرنجة في علم النفس, وما رأينا واحدا منهم فكر فيما كتب الصوفية عن الأهواء والشهوات وأصول الخير والشر والضر والنفع, ولو رجعوا مرة إلى إحياء علوم الدين أو حكم ابن عطاء الله لعرفوا أن هناك مصادر للدرس تصلح للنقل والاقتباس, فلم يكتب علم للحق ولوجه الحق على نحو ما كتب الصوفية في الأخلاق, فالرجل الصوفى حين يؤلف في أدب النفس يجمع بين الصورة القولية والصورة العملية فهو شعلة من اليقظة الروحية فيما يعمل وفيما يقول"[٩].

هذا دليل على أن الأدب الصوفى يجمع بين القول والعمل وبحكم أنه ينشأ من اليقظة الروحية والصحوة العقلية يؤدى دورا بارزا فى إيقاظ الهمم ونهوض الأمة الإسلامية , كما يشير إلى أن الأدب الصوفى زاخر بالمعلومات فى معرفة خبايا النفس و بواطن الروح, و يمكن أن يقال أنه علم النفس فى الإسلام

يقول الدكتور محمد مصطفى حلمى :

"ولعل السبب الذي يرجع إليه إهمال الباحثين منا لدراسة التصوف الإسلامى هو اعتقاد الكثيرين أن أذواق الصوفية وأحوالهم لون من ألوان الهذيان وأن مذاهبهم وأقوالهم ضرب من الكلام الذي لا معنى له , و لا غناء فيه , ولو قد التزم الذين يرون هذا الرأى حدود القصد

والاعتدال في احكامهم , وأنعموا النظر فيما أثر عن الصوفية من أذواق وأحوال , وما خلفوه من آثار وأقوال , ودرسوا هذا كله على ضوء المنهج العلمى الصحيح لغيروا رأيهم في التصوف والصوفية ,ولوجدوا أن المواجيد والأذواق والرموز والإشارات التي حفلت بها الآثار الصوفية المنظومة والمنثورة , إنما هي تعبيرات عن حياة روحية راقية وحالات نفسية رائعة ومذاهب منطوية على كثير من المبادئ والمعانى ليست أقل قيمة من كثير من المذاهب الفلسفية الخالصة المؤسسة على النظر العقلى والاستدلال المنطقى , ولتبينوا أن للعاطفة منطقاً، كما أن للعقل منطقاً , وأن منطق العاطفة قد ينتهى بالخاضع له إلى نتائج لها طرافتها وجدّتها , اللتان لا تقلان عن طرافة النتائج التي ينتهى إليها الإسلام عندنا , وكان لا بد من أن نعنى بهذه الدراسة "[10].

هذه إشارة إلى أن الأدب الصوفى منطق العاطفة و الذوق والقلب والروح وفى نفس الوقت غير بعيد عن الاستدلال العقلى والفلسفى كما يقال فى بعض الأحيان أن الأدب الصوفى بعيد عن الفهم والإدراك بالعقل

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق :

"إن بحوث التصوف وما تحتاج إليه من عناء وجهد ومن إلمام واسع بمصطلحات القوم التي يرددونها بينهم ومن إدراك دقيق يوازن بين أذواقهم الغيبية وبين آراء غيرهم من أهل النظر الخالص أو النظر المشترك يعد في الحقيقة أمرا خطيرا يفتقر إلى اطراح الهوى واستعمال النصفة والعدل في الحكم ويتطلب أيضا أن ينزل الباحث عن بعض نظراته المادية ييسر له أن يعيش آونة في هذا الجو الروحى , ولقد لقيت المتصوفة من قديم الدهر عنتا شديدا , وذلك من جراء غموض ألفاظهم وإشاراتهم وما توهمه من الضلال والزيغ , ولقد اضطر ابن عربى لكى يضمن لنفسه بعض السلامة والعافية أن يضع شرحا لديوانه "ترجمان الأشواق" يبين فيه مقاصد كلامه ومراميه ويظهر ما خفى من معانيه ويعين ما التبس منهما لئلا يتأولها المتأولون على غير الوجه الذي أراد "[11].

اتضح لنا من هذا القول أن الرأى الذى يقول أن الأدب الصوفى بعيد عن الإدراك والفهم على أسس عقلية و منطقية يرجع سببه إلى عدم المعرفة بالمصطلحات الصوفية , والإهمال وقلة الاهتمام من بعض الباحثين من الصوفية بشرح المصطلحات وتقريبها إلى الفهم وعقل العامة من الناس.

يقول الأستاذ الدكتور علي أحمد عبد الهادي الخطيب مبيناً أهمية التصوف الإسلامي في العصر الحاضر:

"في خضم الانحلال و الصراع المادي يبقى التصوف مدرسة تكوّن الرجال , و تسمو بالروح في شمم و إباء وعزة ورفعة و عفة وسمو , فنرى بلدا مثل "السويد" دَخْلُ الفرد يتفوق على دَخْلِ الفرد في الولايات المتحدة ومع ذلك نرى أعلى نسبة الانتحار في "السويد" , لأن الروحانيات لديهم معدومة فنحن في حاجة إلى التصوف ليعيد للمسلمين المعرفة الروحية , ولنكون موصولين بالسماء(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق):[12] فمجتمعنا اليوم في مسيس الحاجة إلى التصوف ليخفف عنا ويلات الحياة , و يبعث الرضا الروحي في نفس كل محروم أو منكوب أو صاحب عقدة نفسية بلغة العصر الحديث , فالتصوف طب الأرواح , وهو يقود إلى الأمن والأمان الحقيقيين في حياة كلها في حياة كلها صراعات مادية و أخلاق لا إنسانية ونفاق وملق مقيت ودسائس و فتن , كل ذلك يدعونا إلى اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى , و التعلق بالسماء , و التصوف الإسلامي المقبوس من كتاب الله عزوجل وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم"[13]

هذا القول يؤكد على ضرورة التصوف الإسلامي للمسلم المعاصر كما أنه يرى أنه الحل الوحيد لمشاكل الحياة و قضاياها حتى جعله طب الأرواح و شفاء المرضى و وقاية الإرهاب والتحلي بالأخلاق العالية و وسيلة هامة في ايجاد العلاقة بين الخالق والمخلوق بين العبد و المعبود.

هذا قليل من كثير حول معرفتنا بالأدب الصوفى ونظرة بعض الكتاب إليه وفي هذا يقرر الباحث أن الأدب الصوفى يخاطب الوجدان , كما أنه حديث الأرواح والقلوب , ويدعو إلى السمو الروحى

, والترفع عن الحياة المادية إلى الشعور الراقي والأحاسيس والمشاعر التي تؤدى بالإنسان إلى الطهارة , والتزكية , وتهذيب النفس , وتربيتها.

وفي الحقيقة إن الأدب الصوفى هو أدب إسلامى ينبت من الأرواح الطاهرة , كما أنه يتوجه بمفاهيمه ومراميه السامية إلى دنيا القلوب وسكينتها .

أما بالنسبة للتأثير الأجنبى وبعبارة أخرى غلبة التيارات الأدبية الوافدة عن طريق المستشرقين على الأدب الإسلامى واختفاء الطابع الروحى والصوفى على الأدب الإسلامى يؤيد الباحث آراء الكتاب فيه الذين سبق ذكرهم ويضيف إلى ذلك بعض الأسباب الأخرى منها : أولا: بقايا من أثر الاستعمار الغربي في فكر الأدباء والكتاب الإسلاميين , ثانيا : التعصب بين الفرق الإسلامية حيث أن بعض الأدب الصوفى يعتبر عند البعض معاديا للأدب الإسلامى , ثالثا : قلة المعرفة عند عامة الناس بالمصطلحات الصوفية , رابعا : كثرة الاستخدام لهذه المصطحات فى الأدب الصوفى دون شرحها فى ضوء الثقافة المعاصرة والمناهج العلمية الحديثة.

المبحث الثاني:

نبذة تاريخية للتصوف الإسلامى ونماذج أدبه في شبه القارة.

إن تاريخ التصوف في شبه القارة الهندية يبدأ بدخول الإسلام في هذه القارة لأن الدعوة إلى الدين الحنيف في هذه المنطقة بدأت على يد الصوفية الأوائل من العرب يؤكد ذلك ماجاء به الشيخ أبو الحسن على الندوى في كتابه تحت عنوان "تاريخ الدعوة الإسلامية والعزيمة" .

"وصول البعثات الإسلامية فى شبه القارة الهندية يبدأ من القرن الأول الهجرى حيث إن المساجد وزوايا التصوف كانت منتشرة مثل الجزر الصغيرة عندما دخل محمد بن قاسم في "سند" فاتحا هذه المنطقة في السنة الثانية والتسعين من القرن الأول للهجرة ولكن تاج الفتح الإسلامى

السياسى لشبه القارة الهندية ينسب إلى سلطان محمود الغزنوى المتوفى في السنة الحادية والعشرين من القرن الخامس للهجرة"[14].

يتضح لنا من هذا القول أن تاريخ التصوف فى شبه القارة الهندية يبدأ من آخر القرن الأول للهجرة وبداية القرن الثانى الهجرى يؤكد ذلك ما صرّح به الدكتور عبد المنعم النمر في كتابه "تاريخ الإسلام في الهند" تحت عنوان" بدء دخول الإسلام في الهند".

"وصل إلى مليبار" إحدى السواحل الواقعة على بحر العرب في جنوب الهند" جماعة من فقراء المسلمين معهم شيخ , قاصدين زيارة قدم أبينا آدم عليه السلام بسيلان (سري لانكا حاليا) فلمّا سمع الملك بوصولهم طلبهم واستضافهم وسألهم عن الأخبار فأخبره شيخهم بأمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبدين الإسلام وبمعجزة انشقاق القمر فأدخل الله I فى قلبه حب النبى صلى الله عليه وسلم فلما عادوا من سيلان إن الملك ركب مع الشيخ والفقراء ليلاً وسار المركب حتى وصل إلى شحر الشاطئ الجنوبى لجزيرة العرب ونزل فيها هو ومن معه أياما سنح لهم فيها ترتيب بعثة تبشر به من المسلمين لتشرف بالدعاء إلى دين الإسلام تقصد مليبار تدعو الناس للإسلام وتنشئ المساجد ولكن فوجئ الجميع بمرض الملك مرضا شديدا ولم يفته وهو في شدة مرضه أن يوصى الدعاة ألا يتأخروا عن السفر إذا مات وكانوا " شرف بن مالك وأخاه مالك بن دينار وابن أخيه مالك بن حبيب بن مالك " ثم كتب لهم ورقة بخط مليبارى عين فيها مكانه وأقرباءه وأمرهم أن ينزلوا في كدنكلور ثم إنه توفى – رحمه الله – وبعد ذلك سافرت البعثة مع أسرها إلى مليبار فوصلوا إلى كدنكلور ونزلوا فيها وأعطوا مكتوب الملك المتوفى إلى الملك الذي فيها وأخفوا خبر موته فلما قرأها وعلم مضمونها أعطاهم الأراضى والبساتين على مقتضى ماكتبه فأقاموا فيها وعمروا بها مسجدا وتوطن فيها مالك بن دينار وإرتحل ابن أخيه مالك بن حبيب للدعوة للإسلام ثم خرج ومعه عمه مالك بن دينار إلى هذه المساجد التي بناها حيث صلّى في كل منها ورجع إلى كدنكلور شاكرا وحامدا له على ظهور دين الإسلام في أرض ممتلئة كفرا ثم سافر مالك بن دينار إلى خراسان وتوفى فيها هو وزوجته مستقرا في "كدنكلور" حتى انتقلا إلى رحمة الله Y وقبره معروف في

شمال مليبار باسم قبر سيدنا مالك للآن كما سمعت من كثير حين زيارتي لمليبار في نوفمبر في السنة السابعة والخمسين من القرن العشرين هذا خبر أول ظهور الإسلام في ديار الهند "[15]

نلاحظ من هذا التصريح أن الصوفية العرب هم الذين وضعوا اللبنة الأولى لدين الإسلام وفكرة التصوف في شبه القارة الهندية حيث أن مالك بن دينار المتوفى في السنة الحادية والثلاثين من القرن الثاني للهجرة رئيس البعثة التبشيرية الإسلامية الأولى في شبه القارة الهندية شخصية صوفية لدى معظم الصوفية القدماء على سبيل المثال نجد ذكره في كتاب "كشف المحجوب" للهجويري يقول عنه:

"بقية أهل الأنس وزين جملة الجن والإنس مالك بن دينار كان صاحب الحسن البصري ومن كبار هذه الطريقة وله كرامات كثيرة مشهورة "[16].

والكرامة تدلّ على صدق رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وعلو مكانة هذا الإنسان الصالح و رفعة قدره عند الله Y حيث إن كرامة الولي تفيد صدق الدعوة الإسلامية.

"يقول مالك يا حملة القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم فإن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض وكان مالك يقول في دعائه اللهم أقبل بقلوبنا إليك حتى نعرفك حسنا وحتى نرعى عهدك وحتى نحفظ وصيتك حسنا"[17].

يتضح لنا من هذه النصوص أن مالك بن دينار من الرواد الأوائل المؤسسين لمدرسة الزهد والتصوف في الإسلام كما يبدو جليا أن بداية التصوف في شبه القارة والهندية كانت بداية سليمة قامت على الكتاب والسنة وذلك في آخر القرن الأول الهجري حيث توفي مالك بن دينار في السنة الحادية والثلاثين من القرن الثاني للهجرة الذي كان على رأس البعثة التبشيرية الإسلامية الأولى في شبه القارة الهندية.

الأدب الصوفي في شبه القارة الهندية الباكستانية:

هذا من المعلوم أن شبه القارة الهندية تتميز بتعدد اللغات لذلك حينما نبحث في الأدب الصوفي في هذه المنطقة نطلع على أنه متناثر في اللغات المختلفة و لا نجد لغة من هذه اللغات تخلو من الأدب الصوفي ولا يتسع المقام هنا أن نأتي بكل لغات هذه المنطقة إلا أن الباحث يحاول أن يقتطف من تلك البساتين الأدبية الصوفية بعض الأوراد و الأزهار من الشعر و النثر في اللغة العربية التي شدّت انتباهه إليها و جذبته رائحتها و اخترت بعض النماذج الشعرية والنثرية من الأدب العربي الصوفي في شبه القارة الهندية التي تبرز الجانب الصوفي للإسلام.

أولا : الشيخ شاه ولي الله الدهلوي.

إن الشيخ شاه ولي الله الدهلوي لا يحتاج إلى تعريف لما له من خدماته المكثفة في مجال الدراسات الإسلامية عامة و الدراسات الصوفية خاصة حيث أخرج العديد من الكتب القيمة في هذين المجالين العقلي والروحي. يقول الشيخ محمد بشير السيالكوتي:

"لم يزل مجتمع المسلمين في الهند متأثرا بالتصوف منذ فتحها الغزنويون، ثم لم يزل يزداد نفوذه ويقوى سلطانه حتى لا تكاد تجد عالما أو مصلحا يعتد به في تاريخها إلا وهو متمسك به إلا من شاء الله من أفراد منهم. وكان تمسك العلماء والفقهاء الأوائل به لحبّهم للإسلام وحرصهم على الإخلاص في العبادة والاتصاف بالخصال الحميدة والأخلاق الحسنة، وكانوا يعتبرونه نوعا من الإحسان والتزكية التي وردت بها نصوص القرآن والسنة، ووسيلة لتربية المسلمين وبث التوعية الإسلامية في هذه الخلفية ولد الشاه ولي الله الدهلوي، ونشأ نشأة صوفية على عادة أسلافه ولقّن أوراد التصوف وأتقن طرقه الأربع المعروفة في هذه البلاد، وتبحر فيه فأحاط بأصوله وفروعه ووقف على أسراره، وانتهت إليه الرئاسة في علم السلوك والإحسان، شأنه فيه كشأنه في علوم القرآن والحديث والفقه التي بلغ فيها مرتبة التحقيق والاجتهاد".[18]

إنه كان في الحقيقة علما كبيرا من أعلام العلماء والأدباء في شبه القارة الهندية الباكستانية , وقد خدم الإسلام والمسلمين بمؤلفاته القيمة في شتى مجالات العلوم والفنون.

النموذج الأول (النثر): في زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم :

يقول الشيخ شاه ولي الله الدهلوي:

"لما دخلت المدينة المنورة وزرت الروضة المقدسة على صاحبها أفضل الصلوات والتسليمات رأيت روحه صلى الله عليه وسلم ظاهرة بارزة لا في عالم الأرواح فقط بل في المثال القريب من الحس فأدركت أن العوام إنما ينكرون حضور النبي صلى الله عليه وسلم في الصلوات وإمامته بالناس فيها وأمثال ذلك من هذه الدقيقة , ولمّا كان اليوم الثالث سلّمت عليه صلى الله عليه وسلم وعلى صاحبيه رضي الله عنهما ثم قلت يا رسول الله أفض علينا مما أفاض الله عليك جئناك راغبين في خيرك وأنت رحمة للعالمين فانبسط إليّ انبساطا عظيما حتى تخيلت كأن عطافة ردائه لفتني وغشيتني ثم غطني غطة وبدا لي واظهر لي الأسرار وعرفني بنفسه وأمدني إمدادا عظيما إجماليا وعرفني كيف أستمد به في حوائجي وكيف يرد هو إليه من يصلي عليه

أفلت شموس الأولين وشمسنا أبدا على أفق العلى لا تغرب"[19]

إن هذا النص يلقي الضوء على ما أنعم الله على الشيخ شاه ولي الله الدهلوي من أعلى المقامات الروحية و الرضا والإقبال عليه في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم كما أنه كان يتمتع بالمدد الروحاني من قبل حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وهذا المدد الروحاني كان باعثا كبيرا فيما قام به من إنجازات علمية و ترك وراءه آثارا خالدة يستطيع المسلم المعاصر أن يستهدي و يسترشد بها في فهم القرآن والسنة علما و عملا ,والعلوم الظاهرية والباطنية ,وتذوق القال و الحال.

النموذج الثاني(النثر): في الجانب الروحاني للأحكام الشرعية:

يقول الشيخ شاه ولي الله الدهلوي "من أصول الأخلاق الثلاثة , الأول , الطهارة الكاسبة للتشبيه بالملكوت، والإخبات الجالب للتطلع إلى الجبروت، وشُرع للأول الوضوء والغسل وللثاني

الصلاة والأذكار والتلاوة. وإذا اجتمعنا سميناه سكنية ووسيلة . وهو قول حذيفة في عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما: لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أنه أقربهم إلى الله وسيلة. وقد سمّاها الشارع إيماناً في قوله: "الطهور شطر الإيمان"..والثاني سماحة النفس، وهي ألا تنقاد الملكية لدواعي البهيمية: من طلب اللذة، وحب الانتقام، والغضب، والبخل، والحرص على المال والجاه. فإن هذه الأمور إذا باشر الإنسان أعمالها المناسبة لها تتشبح ألوانها في جوهر النفس ساعة ما. فإن كانت النفس مسحة يسهل عليها رفض الهيآت الخسيسة، فصارت كأنه لم يمكّن فيها شيء من ذلك الباب واستغرقت في لجة الأنوار التي تقتضيها جبلة النفوس لولا الموانع. والثالث العدالة. وهي ملكة يصدر منها إقامة النظام العادل المصلح في تدبير المنزل وسياسة المدينة ونحو ذلك بسهولة. وأصلها جبلة نفسانية تنبعث منها الأفكار الكلية والسياسات المناسبة بما عند الله وعند ملائكته. وذلك أن الله تعالى أراد في العالم انتظام أمرهم، وأن يعاون بعضهم بعضا. وألا يظلم بعضهم بعضا، وأن يتألف بعضهم ببعض، ويصيروا كجسد واحد، وملائكته المقربون تلقوا ذلك وصاروا يدعون لمن سعى في إصلاح الناس ويلعنون على من سعى في فسادهم [20]. وهو قوله تعالى": وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [21].

إن الشيخ شاه ولي الله الدهلوي يوضح حقيقة الطهارة و السماحة و العدالة ودور هذه الصفات في قيام المجتمع الرشيد و ما لها من الفوائد التي تعود إلى من يقوم بها , كما أن هذا الجانب الروحي للإسلام يقوي الإنسان إلى هذه الدرجة أنه يستطيع أن يستحمل مما تنزل عليه من آفات و مصائب ويصبر حتى تنفرج و تبتعد عنه .كما يبين أهمية الإيمان بالله تعالى و الأعمال الصالحة يذكر تلك المنح و العطايا التي اختص بها سبحانه وتعالى عباده الصالحين.

النموذج (من الشعر): في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم

فمن شاء فليذكر جمال بثينة ... ومن شاء فليغزل بحب الزيانب
سأذكر حبي للحبيب محمد ... إذا وصف العشاق حب الحبائب
وأذكر وجدا قد تقادم عهده ... حواه فؤادي قبل كون الكواكب
يبدأ محياه لعيني في الكرى ... بنفسي افديه إذا والأقارب
ويدركني في ذكره قشعريرة ... من الوُجد لا يحويه علم الأجانب
وألفي لروحي عند ذلك هزة ... وأنسا وروحا دون وثبة واثب
وصلى عليك الله يا خير خلقه ... ويا خير مأمول ويا خير واهب
ويا خير من يُرجى لكشف رزية ... ومن جوده فاق جحود السحائب
فأشهد أن الله راحم خلقه ... وأنك مفتاح لكنز المواهب
وأنك أعلى المرسلين مكانة ... وأنت لهم شمس وهم الثواقب
وأنت شفيع يوم لا ذو شفاعة ... بمغني كما أثنى سواد بن قارب
وأنت مجيري من هجوم ملمة ... إذا أنشبت في القلب شر المخالب
فإني منكم في قلاع حصينة ... وحد حديد من سيوف المحارب[22]

هذه الأبيات قمة في حبّ الرسول صلى الله عليه وسلم لدى الشيخ شاه ولي الله الدهلوي وقصيدة فريدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم , كما أنه يذكر مايجري عليه من الأحوال الروحية و الفتوحات الربانية من زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم و الوجد وإذا رجعنا إلى المعجم الصوفي للتعرف على معنى الوجد نجد أنه "مكاشفات من الحق تعالى"[23] من هذا المنطلق أن الشيخ شاه ولي الله الدهلوي كان تدرج في أعلى منازل القرب من الله تعالى و رسوله صلى الله عليه وسلم , و كما أنه يتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم في حالة الكرب و المصيبة , و مع ذلك يذكر بعض شمائل النبي

صلى الله عليه وسلم في هذه الأبيات, و إذا نظرنا إلى هذه القصيدة من الناحية اللغوية و الأدبية نجد أنها تعد نموذجا أدبيا رائعا مفعما بالفصاحة و البلاغة و المشاعر الرقيقة و الأحاسيس الدقيقة لأنه حديث يخرج من قلب معلّق بحبّ الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ويوجه مباشرة إلى القلوب يعطّرها برائحة طيبة و يرش عليها ماء الحب و الأنس و الألفة و القرب من الله تعالى ورسوله و يشعر الإنسان كأنّه و صل إلى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم في عالم الخيال و يتشرف بقربه و أنسه و مدده الروحي عليه أفضل الصلوة و السلام.

ثانيا : الشيخ أبو الحسن علي الندوي.

إنه علم من أعلام الأدباء الكبار و داعية إسلامي من الدعاة العظام في شبه القارة الهندية الباكستانية : ويؤيد ذلك دكتور نور محمد شاكر قائلا :

"كان الندوي مصلحا عظيما و داعية كبيرا , و دائرة دعوته ليست محصورة في بعض الأفراد أو أسرة مخصوصة في الهند بل دائرته عمت العالم عربه وعجمه أفراده و شعوبه , و جاهد بالقلم كما جاهد باللسان في نشر الدعوة الإسلامية , وصنف الندوي كتبا علمية و ألّف مقالات قيمة ذاخرة بالفكر الإسلامي الصوفي"[24].

النموذج الأول:

يقول الشيخ أبو الحسن علي الندوي:

" إذا تأملنا في القرآن والحديث , وجدنا القرآن ينوّه بشعبةٍ من شُعب الدين. ومهمة من مهمات النبوة يعبّر عنها بلفظ (التزكية) ويذكرها كركن من الأركان الأربعة التي بعث الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم لتحقيقها وتكميلها: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(25) وهي تزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل. وتخليتها من الرذائل. التزكية التي نرى أمثلتها الرائعة في

حياة الصحابة رضوان الله عليهم وإخلاصهم وأخلاقهم، والتي كانت نتيجتها هذا المجتمع الصالح الفاضل المثالي، الذي ليس له نظير في التاريخ، وهذه الحكومة العادلة الراشدة التي لا مثيل لها في العالم". (26)

إن المنهج التربوي الذي كان متعارفا بين أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم كان مثاليا والركن الأساسي منه هو تزكية النفس و تهذيبها ,لذلك إذا أردنا أن نكوّن مجتمعا مثاليا فلا بد من اختيار المنهج التربوي المثالي الذي يشمل على تربية عقلية و روحية معا , من هنا يتجلّى دور التصوف في إصلاح المجتمع الذي يحقق تربية الباطن إلى جانب إصلاح الظاهر.

النموذج الثاني:

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي في "وجدنا الشريعة، وما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم من الأقوال والأحوال، ودُوّن في الكتب، ينقسم بين قسمين: أفعال وهيئات، وأمور محسوسة كقيام وقعود، وركوع وسجود، وتلاوة وتسبيح، وأدعية وأذكار، وأحكام ومناسب، قد تكفّل بها الحديث رواية وتدويناً، والفقه استخراجا واستنباطاً، وقام بها المحدّثون والفقهاء – جزاهم الله عن الأمر – فحفظوا للأمة دينها، وسهّلوا لها العمل به. وقسم آخر هو كيفيات باطنة، كانت تصاحب هذه الأفعال والهيئات عند الأداء، وتلازم الرسول صلى الله عليه وسلم قياماً وقعودا، وركوعاً وسجوداً، وداعياً وذاكراً، وآمراً وناهياً، وفي خلوة البيت وساحة الجهاد، وهو الإخلاص والاحتساب والصبر والتوكّل، والزهد وغنى القلب، والإيثار والسخاء، والأدب والحياء، والخشوع في الصلاة والتضرع، والابتهال في الدعاء، والزهد في زخارف الحياة وإيثار الآخرة على العاجلة، والشوق إلى لقاء الله، إلى غير ذلك من كيفيات باطنية، وأخلاق إيمانية، هي من الشريعة بمنزلة الروح من الجسد، والباطن من الظاهر. لا بد أن نملأ هذا الفراغ الواقع في حياتنا ومجتمعنا، ونسد هذا المكان الذي كان يشغله الدعاة إلى الله والربانية، والمشتغلون بتربية النفوس وتزكيتها وتجديد إيمانها، وصلتها

بالله. والدعوة إصلاح الباطن . والعناية بالفرد قبل المجتمع. وأقول للمتحمسين في نقد هؤلاء الدعاة والمنكرين عليهم . بلسان الشاعر العربي (الحطيئة):

أقِلُّوا عليهم لا أباً لأبيكم من اللّومِ سُدُّوا المكان الذي سَدُّوا[27]

في الحقيقة هذه دعوة حارة مفعمة بالأحاسيس و المشاعر الصادرة من القلب بعد أن رأى أديبنا الكبير هذه الفجوة في المجتمع و التي تعتبر حاجزا كبيرا بين التقدم و التطور للأمة الإسلامية لأننا مهما حاولنا بالمناهج الغربية أن نصلح مجتمعنا لا نستطيع على ذلك و الحل الوحيد لمشاكلنا و قضايانا هو تربية روحية لأن الروح يقود الجسم لذلك سكينة الروح في الحقيقة سكينة الجسم و ليس عكس ذلك لأن الجسم في بعض الأحيان يكون في الراحة و لكن الروح تكون قلقة و مضطربة ويدعو الشيخ منكري التصوف أنهم بدلا أن يلوموا الصوفية و التصوف عليهم أن يقوموا بما قاموا به من خدمة المجتمع في مجال الإصلاح و التقدم و الازدهار.

ثالثا : الشيخ فيض الحسن السهارنبوري:

إنه شاعر كبير من شعراء شبه القارة الهندية و عالم بارز من علماءها يقول دكتور نور محمد شاكر عنه "كان الشيخ فيض الحسن السهارنبوري شاعرا مجيدا في اللغة العربية و الفارسية و الأردية ويبدو من تتبع شعره أنه نظم في أغراض شعرية مختلفة من مديح و رثاء وفخر وهجاء و غيرها , وله قدرة فائقة في قرض الشعر ولكنه غالبا ما يقلد نماذج الشعر القديم و مع ذلك لا يخلو شعره من بديع الخيال و رائع التعبير و صدق المشاعر"[28]

النموذج الأول: في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم

إذا حُسنُ سلمى ليس عنها برائحِ فيا حبها زدني جوًى في جوانحي
أرى حبها روحي وقد سيط من دمي فما دمت حيا ليس عني ببارح
كأن فؤادي جذوة من جذى الغضى وعيني غرب من غروب نواضح

هل العين عين لم يفر قط مأؤها ... ولو فارسالت فورة بالأباطح

تحن إليها إذ تحن مهَيْجتي ... وتسعى إليها حين تسعى جوارحي

شربت كؤوس الحب تترى ولم أبل ... فها أنا أزري كل سكران طافح

هنيئا مريئا لي تباريح شوقها ... فلا برحت من قبل نوح النوائح

دعوني و وجدي ما أبالي بلائم ... وزدني و مالي ما أصيخ لناصح

جزى الله عني من يريد أذيتي ... فيغرى بمثلي كل قال وكائح

ولولا الهوى ما كنت صبا متيما ... ولولا الهوى ما طوحتني الطوائح[29]

أخاف مقامي عند ربيّ و أرتجي ... شفاعة حبيّ يوم كشف القبائح

شفيع كريم جلّ عن وصف واصف ... ويقصر عما فيه إطراء مادح

هو العروة الوثقى ومن يعتصم به ... يجد عصمة من قاصم الظهر فاضح

ومن ضلّ عنه ضلّ عن سنّة الهدى ... ولمّا يصب من رأيه غير راجح

عليه صلاة الله طلاّ و وابلا ... مدى الدهر ما غيث الورى بالروائح

إن الشاعر في الأبيات الأولى من هذه القصيدة يبين شدة الحب وعمق العلاقة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق الرمز و في الأخير يظهر ما يقصد من هذا الرمز و يأتي بفضائله و صفاته ويبين أهمية رسالته و سنته على صاحبها الصلاة والسلام ويستخدم الشيخ في الأبيات الأولى صيغة التأنيث يبدو أنه يتغزل في حبّ فتاة إلا أنه يمدح النبي صلى الله عليه وسلم كما يرمز بعض الصوفية من كلمة "سلمى" أو "ليلى" إلى ذات الله تعالى لأن الفتاة رمز للحب و يبدأ الصوفية من الحب الدنيوي ثم ينتقلون إلى الحب الديني و ذلك يتمثل في حب الله تعالى و رسوله صلى الله عليه وسلم وأصحاب رسول الله و آل بيت رسول الله و أولياء الله الصالحين رضوان الله عليهم جميعا. يقول أ. د/ عبد المنعم خفاجي عن هذا الرمز الصوفي.

"وليس الرمز في الشعر الصوفي راجعاً إلى الكنايات البعيدة وحدها وإطلاق أسماء من قبيل الرموز الخفية على مسميات لا يراد التصريح بها كإطلاقهم الخمرة على لذة الوصل ونشوته وإطلاقهم سعدى ولبنى على المحبوب الأعلى مثلاً كما يقول الشاعر الصوفي".

أسميك لبنى في نسيبي تارة ... وآونة سعدى وآونة ليلى

حذارا من الواشين أن يفطنوا بنا ... وإلا فمن لبنى؟ فدتك، ومن ليلى؟"[30]

ويقول أستاذنا الدكتور خفاجي:

"والمعاني الحسية التي يستعملها الصوفيون في الدلالة على المعاني الروحية يرمزون بها إلى مفاهيم وجدانية على الرغم من الرداء المادي الذي تبدو فيه ومن ثم استعمل الصوفيون الوصف الحسي والغزل الحسي والخمر الحسية وأرادوا بها معاني روحية"[31].

هذه إشارة إلى أن الصوفية في استخدامهم الوصف الحسي في الشعر الصوفي يريدون به المعاني الروحية الوجدانية ويذكر أستاذنا الدكتور خفاجي ضرورة ذلك قائلاً:

"وسبب ذلك الحب أن الشاعر يمضي إلى العالم الروحي ومعه من عالم المادة أدواته وأخيلته التي هي عدته في تصوير عالمه الجديد. فالصوفية يطلقون مثلاً الخمر والعين والخد والشعر والوجه ألفاظاً ترمز إلى مدلولات غير تلك التي تعارف عليها الناس في دنيا الحس والرمزية في الغزليات والخمريات ليست بالغريبة على الشعر الصوفي في الإسلام"[32].

والسؤال يطرح نفسه هنا أننا ما دمنا نتكلم عن الأدب الصوفي الإسلامي المحض فما الفرق بين هذه الغزليات الصوفية وبين الغزليات والخمريات الأدبية غير الصوفية التي تحمل الطابع الحسي

من الحب أو بعبارة صريحة حب المرأة والخمر وذكر مفاتن المرأة التي تثير الغريزة في الإنسان ومفاسد الخمر التي منعها الإسلام .

والإجابة على ذلك في رأى الباحث تكمن في أن الفرق بين هذين النوعين يتجلى تماما عندما يذكر الصوفى حب المرأة أو جمال وجهها , أو نشوة الخمر كناية عن الحب الإلهى , ورمزا عن الإنطلاق من عالم الحس إلى عالم الوجدان , أما مفاتن المرأة الحسية وآثار الخمر الحسية ومفاسده , لا نجد ذلك في الغزليات والخمريات الصوفية مما يقيم الدليل على أن الأدب الصوفى شعرا أو نثرا لا يدعوا إلى فساد أخلاقى ودينى , كما أن الأدب المجرد من الطابع الصوفى أو الإسلامى مليئ بذكر مفاتن الحسية للمرأة التي تؤدى إلى أثر خلقى غير مرغوب عند الأمة الإسلامية عامة وشباب الأمة الإسلامية خاصة.

رابعا : الشيخ فضل الحق الخير آبادي :

إن الشيخ فضل الحق الخير آبادي كان من العلماء الكبار وأحد من صوفية الإسلام الأجلاء و المحاربين البارزين ضد التيارات الوافدة والأفكار المعادية للإسلام و رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام , يعرفنا به أخونا الدكتور ممتاز أحمد السديدي قائلا :

> " إذا كان شاعرنا الصوفي اتبع طريق الصوفية في الاستدلال على وجود الله تعالى فإنه سلك مسلكهم عند نظم الابتهالات الرقيقة التي تتصف بالخشوع و الخضوع وقد بلغت قمة الرقة , لقد نظم شاعرنا في فناء الدنيا فأجاد , وقرض في مدح الحبيب صلى الله عليه وسلم فأبدع , و كان شاعرنا مدفوعا إلى كل هذه الموضوعات لتصوفه و رغبته في الصلاح و إقباله على الله سبحانه وتعالى بصدق وإخلاص "[33]

النموذج الأول: في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

يقول:

حبيب حسيب جل عن وصف واصف ... وحسبان حساب و حسبان حاسب

و أول رسل الله و آخرهم ... فماله من مساو في العلى أو مقارب

يفـــوق النبيـــين الكـــرام نقيبـــة ... فمنـــه اســـتفادوا مـــالهم مـــن مناقـــب
ســـما فـــوقهم كالشـــمس فـــوق كواكـــب ... الـــسماوات أو كالملـــك فـــوق كواكـــب
خمـــدت لمولـــده المجـــوس و نـــارهم ... قـــد أو قـــدوها ايمـــا إيفـــاد
بـــدى التصـــدع في كســـرى و دولـــت ... بصـــدع إيوانـــه المرصـــود بـــال
ســـراج خبـــت نـــار المجـــوس بنـــوره ... وفي بحـــرهم لـــم يبـــق للمـــاء منبـــع
شـــفيع الـــورى يمحـــو الكبـــائر ميحـــه ... نـــدى ميحـــه يقضـــي كبـــار المـــآرب
نـــذير بشـــير الخلـــق للخلـــق رحمـــة ... بشـــير عظـــيم الخلـــق جـــم المواهـــب
أكـــرم بعترتـــه الطهـــارة الســـادة الـــ ... لائـــين هـــم أفـــلاذه بضـــعاته
أصـــحابه اتبعـــوا هـــداه و هديـــه ... وهـــم الحمـــاة لدينـــه و حماتـــه
قـــد اصـــطفت أنفـــس الأخـــلاق أنفســـهم ... وطهـــرت عـــن ســـمات الـــرجس والـــدنس
أثـــنى عـــلى ســـور صـــحب المصـــطفى ... سور من المثاني بفضل الرحمن والحمس[34]

كما أشرنا قبل قليل إلى أن الصوفية يمدحون الرسول صلى الله عليه وسلم و أصحابه و آل بيت رسول الله رضوان الله عليهم أجمعين نرى ذلك في هذه الأبيات حيث إن الشاعر بدأ بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم و ذكر أفضليته و علو منزلته ثم جاء بذكر معجزاته التي حدثت عند مولده صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ينتقل إلى بيان شمائله و أوصافه صلى الله عليه وسلم , و في الأخير يمدح أصحاب النبي و آل بيت النبي رضوان الله عليهم أجمعين الذين اتبعوه في دين الله تعالى و سلكوا مسلكه و احتذوا حذوه و ساروا على منهجه في حياتهم و نشروا دين الإسلام في أرجاء العالم كما أشار إلى تلك الآية الكريمة التي تدل على طهارة آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل (إنمايريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهّركم تطهيرا)([35])

النموذج الثاني: في مناجاة و ابتهالات إلى الله تعالى:

يـــارب حقـــق لي رجـــائي ولا يكـــن ... لي في النجـــاة مـــن العـــدى إرجـــاء
رب اعـــف عـــني مـــا اقترفـــت وعـــافني ... فرجـــائي منـــك العفـــو والإعفـــاء
إن جـــم إجرامـــي فعنـــدك رحمـــة ... مـــا حـــدها حـــد ولا إحصـــاء
فـــاغفر و عـــاف و تـــب عـــلى فنجـــني ... مـــا ابـــتلائي الخصـــم والمشـــاء
إن كـــان مـــا أشـــكوه مقضـــيا فكم ... بـــدعاء مظلـــوم يـــرد قضـــاء
لا تشـــقني أبـــدا و أســـعدني فـــلا ... ينتـــاب مـــن بعـــد الســـعود شـــقاء
واجـــب لمظلـــوم دعـــاك وضـــره ... فاضـــطره كفـــر عـــدوا و أســـاءوا[36]

إن الابتهال إلى الله تعالى فن من فنون الشعر الصوفي المعروف و ذلك أن شاعرا كلما واجه بلاء أو حاصرته مصيبة أو خالف منهجا إسلاميا في وقت من الأوقات في حياته السابقة يتوجه إلى الله تعالى بكل خشوع وخضوع يطلب العفو و العافية و النجاة من الهموم و الأحزان , وذلك أحيانا يكون على مستوى شخصي و في بعض الأحيان يكون على مستوى قومي , و النوع الثالث تتوسع دائرتها إلى الأمة الإسلامية ونرى نموذجا رائعا من هذا الشعر عند شاعرنا و يدعو الله تعالى أن يعفو عنه على ما وقع منه من تقصيرات و ينجّيه من مؤامرات و عداوات الكفار و فيه إشارة إلى الإنجليز المستعمرين في الهند في تلك الفترة من الزمن , كما أنه يريد أن يكون سعيدا في الدنيا و الآخرة وفي رأي الباحث إن الشاعر يطلب النجاة من المستعمرين وعداوتهم ومؤمراتهم لمسلمي شبه القارة الهندية كما أنه يطلب السعادة و الأمن و السلام و الازدهار لهم جميعا.

النموذج الثالث: في فناء الدنيا و ملذاتها:

مـــا أطيـــب العـــيش لـــو لا أن مرجعـــه ... عمـــا قريـــب إلى قـــبر و ملحـــود
لـــم يبـــق قبـــل ولـــن يـــبقى ســـوى الأحـــد ... الـــقديم مـــن أحـــد في الـــدهر موجـــود

كم معهد عهدنا آهلا فغدا ... بعيد عهد قواء غير معهود
ليس يبقى إذ العيش انقضى و مضى ... تفاوت بين محدود و مجدود
الموت هاذم لذات المعاش بلا ... تمايز بين مسؤم و مسعود
والشيب للمرء من أدهى الوبال فكم ... للهم في الهم من جد و تجديد
شبابه صبوة تعمى بصيرته ضيعت ... وشيبه حسرة وجدا بمفقود
عمري في الأعذار منهمكا ... وما لذلك من عذر و تمهيد[37]

هذه حقيقة لا يستطيع أحد أن ينكرها أن الدنيا و ما فيها من ملذات و شهوات كلها فانية , سواء كانت هذه النعم و اللذات تتمثل في كثرة المال أو قوة الشباب أو ملكية الأراضي أو كثرة الأولاد , مهما كان من الصور و الأشكال لهذه المنح و العطايا يأتي يوم تنتهي صلاحية هذه الأشياء كلها و تفقد خصائصها و ميزاتها و تكون بدون أثر و تأثير, يشير شاعرنا إلى هذه الحقيقة التي ذكرها القرآن الكريم و قال:

"كل من عليها فان و يبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام"[38]

و يذكرنا أن ننتهز الفرصة قبل نهاية الوقت المتاح للاستعداد و التجهيز للإقبال على الموت و عندئذ لا يسمع من الإنسان من الأعذار ولا يقبل منه المبررات.

خامسا : الشيخ أحمد رضا خان البريلوي:

إن الشيخ أحمد رضا خان البريلوي كان من العلماء الأفذاذ و الأدباء الكبار في شبه القارة الهندية الباكستانية , إن موهبته الأدبية ظهرت منذ حداثة سنه فبدأ يكتب بالأداب العربية و الأردية و الفارسية في عهد مبكر من حياته , كما أنه أجاد و اتقن هذه اللغات ونظم الشعر بها , يقول الدكتور محي الدين الألوائي: "قديما قيل إن التحقيق العلمي الأصيل و الخيال الذهني الخصيب لا

يجتمع في شخص واحد إلا قليلا و من هذه القلة القليلة الشيخ أحمد رضا خان الذي كان محل اجتماع التحقيق العلمي الأصيل و الخيال الذهني الخصيب تشهد له بذلك دواوينه الشعرية باللغات الفارسية والأردية و العربية وديوانه المعروف ب" حدائق بخشش" (حدائق العطايا) في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم مشهور في أوساط شعراء الهند وذلك بجانب مؤلفاته في علوم الفلسفة و الفلك والرياضة والدين و الأدب"[39]

النموذج: في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم

هذا و صلى ربنا ... بتكرر و تمجد

دوما على من يوصف ... بمحمد و بأحمد

والآل والأصحاب هم ... مأواي عند شدائد

وادم صلاتك والسلام ... على الحبيب الأجود

واجعل بها أحمد رضا ... عبدا بحرز السيد

ولذ برسوله فليأذه الحق ... وعاهده من الله العهود

جوار لا يضام ولا يرام ... وركن لا يهد ولا يهيد

على المولى من الأعلى صلاة ... تفيض فتستفيض بها العبيد

على الوالي من العالي سلام ... يجود فيجتدي منه العبود

صلاة لا تحد ولا تعد ... ولا تفني وإن فنيت ابود

سلام لا يمن ولا يماني ... ولا يبلي متى بليت عهود

رسول الله أنت لنا الرجاء ... وفضلك واسع وجداك جود[40]

إن شاعرنا في هذه الأبيات يبين لنا منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم عند الله تعالى حيث وصف بمحمد و أحمد في القرآن الكريم حيث قال الله عزوجل " ما كان محمد أبا أحد من رجالكم

ولكن رسول الله و خاتم النبيين وكان الله بكل شيئ عليما"[41]. و جاء في مقام آخر في القرآن الكريم " و إذ قال عيسى ابن مريم يبني إسراءيل إني رسول الله إليكم مصدّقا لما بين يدي من التوراة ومبشّرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبيّنات قالوا هذا سحر مبين"[42]

ثم يذكر شاعرنا أن أصحاب النبي الكرام و آل بيته الأطهار لن ننسى فضلهم و منزلتهم , بل نحن نستمد من النفحات الروحية أيضا من هؤلاء جميعا , كلما نواجه المشكلة في مسيرة الحياة الصعبة كما أنه ينصح البشرية كلها أن عليهم أن يتمسكوا بحب بذاته و اتباع بما جاء به من رسالة سماوية حقة إذا ترغب أن تحل العقد و المشاكل في حياتنا في الدنيا والآخرة.